٤٥ أَذِّنْ وَعَلَيَّ البَلاَغُ

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال (١) :

«لَمَّا فَرَغَ إبْراهِيمُ مِنْ بنَاءِ البَيْتِ قَالَ : رَبِّ قَدْ فرغْتُ . فقال : أَذِّنْ فى النَّاسِ بالحجِّ . قال : رَبِّ وماَ يبلُغ صوْتى ؟

قال : أَذِّنْ وعَلَىَّ البَلاَغُ.

قال : رَبِّ كيْفَ أقُولُ؟

قال : يَأيُّهَا النَّاسُ ، كُتِبَ عليكُم الحجُّ . حَجُّ البيْتِ العَتِيق.

فَسَمِعَه مِنْ بين السَّماء والأرْض، أَلاَ تَرى أنهُمْ يجِيئُونَ مِنْ أَقْصَى الأرْضِ يُلَبُّونَ؟

يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام :

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

[آل عمران]

فإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صِلَةً بالبيت الحرام ، وكان رَفْع قواعد البيت الحرام على يده ، بعد أنْ طُمِر وسُتِر بالطوفان فى عهد نوح عليه

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٨٨) ، وقال :«هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبى في تلخيصه .

السلام ، فحين يأتى الكلام في رسالة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلا بُدَّ أن تأتى أكبر حادثة في تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهي حادثة بناء البيت الحرام.

فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة ؛ لذلك كان من اللازم حين تأتي كلمة «ناس» أن يكون هناك «بيت» و«آدم» من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضِع له.

وحين يُقَال : إن البيت قد تَمَّ بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ (٩٦)﴾ {آل عمران}

فلماذا نحرم آدم من أنْ يكون له بيت عند الله ؟ إذن : فالبيت موجود من قبل آدم.

وبعض الناس تظنونُّ أن إبراهيم هو الذي بني البيت ، ولأصحاب هذا الظنِّ نقول: لنفهم القرآن معاً، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ (٩٦)﴾ {آل عمران} ، وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قَبْله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجيء إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهم الحقوق نفسها عند الله التي وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلا بُدَّ أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآنى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ (٩٦)﴾ {آل عمران} يؤكد ذلك ، وما دام قد جاء الفعل مبنياً للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ «وُضِع» هو فعل مبني على ما لم يُسَمَّ فاعله ، فمَنِ الذى وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك ، وهو أنْ يكون الملائكة قد تلقَّوْا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ {آل

عـمـران} وهذا يعنى أن البـيت هُدىً للمـلائكة ؛ لأنـهم عَـالَم ، وهذا يعني أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك.

إن أحداً لا يـقدر أن يجـعل الكون على قَدْر العـقل البشـري ، إن على العقل البـشري أن يكون في رِكَاب الكون ، وإياك أن تجـعل الكون فى ركاب عقلك .

فالحق سـبحانه لـم يترك الخَلْق من آدم إلي إبراهيم دون بيت يحـجُّون إليه ، ولكن الحق سـبحانه وضع البيت ليـحج إليه الناس من أول آدم إلى أنْ تقوم الساعة.

أما مسألة أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد بنى الكعبة أولاً ، فهذا عدم فَهْم للنص القرآنى القائل :﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)** ﴾ {البقرة}

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البُعْد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض مـوجودان . إذن : فـهذا دليل علـى وجود البـيت قبل أن يقـيم إبراهيم عليـه السـلام ارتفاعَ البيت ، وهكذا نسـتنتج أن الذي كـان مطمـوسـاً هو القاعـدة والارتفاع ، ومع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان . أما البناء فهو الذي يُحدِّد «المكين» وعندما انهدم البيت الحـرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه .

ونحن عندما نصلي في الدور الثـالث فى الحرام ، فإننا نتجـه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو حفـرنا نفقاً تحت الأرض بألف متر ، وأردنا أن نصلي فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جَوَّ الكعبة كعبة .

إذن : فعمل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان في إيجاد المكين لا المكان ، ولنقرأ بالفَهْم الإيماني ما حدث لإبراهيم عليه السلام ، لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بهما ليضعهما في هذا المكان . و«هاجر» تعرف أن مُكوِّنات الحياة هى المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه.

لذلك ، قالت هاجر سائلةً إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ كيف تتركنا هنا ؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله . لذلك قالت : «والله لا يُضيِّعنا أبداً »(١).

لم تقلق هاجر ؛ لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان في قمته ، ولو لم يكُن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأىّ قلب لأم تترك أبَ الطفل يذهب بعيداً عنها ، وتعيش مع ابنها في هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء ، فهي لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم .

وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ {إبراهيم}

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت ، وأن هذا البيت مُحرَّم ، وعندما نقرأ عن رَفْع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده ، بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

(١) ذلك أن هاجر قالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لايضيعنا . ذكره القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٧٠٧).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ {البقرة}

هكذا نعلم أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن فى إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلُّنا على أن إسماعيل نشأ طفلاً فى هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقَّن أن البيت المحرَّم كان موجوداً من قَبْل إبراهيم عليه السلام .

ومعنى رَفْع القواعد أي : إيجاد البُعْد الثالث ، وهو الارتفاع ؛ لأن البيت الحرام له طول ، وهذا هو البُعْد الأول ، وله عرض وهو البُعْد الثاني ، وبهما تتحدَّد المساحة . أما الارتفاع فبضربه في البُعْدين الآخرين يعطينا الحجم ، وقد أقام سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ البُعْد الثالث الذي يبرز الحجم.

ولكن ، هل يرفع إبراهيمُ القواعد من البيت الآن ؟ أم أنه رُفِع وانتهى ؟ طبعاً هو رُفِع وانتهى ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت .

والله يريد من المؤمنين أنْ يتصوَّروا عملية الرفْع ، فلم يكُنْ إبراهيم يملك سُلَّماً حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكُنْ يملك «سقالة» ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أنْ يتحايل ويأتي بالحجر.

إن الله يريد منَّا ألاَّ ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولا بُدَّ أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أنْ يحملاه إلى مكان البناء ، ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار

الأخرى التى سيتم بها رَفْع القواعد من البيت ، ورغم المشقة التي يتحملها الاثنان فهما سعيدان.

وكلٌّ ما يطلبانه من الله هو أن يتقبَّل منهما ، وهما لا يريدان إلا الثواب.

إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بمجرد أنْ فرغَا من رَفْع القواعد من البيت قالا : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة]

وكأنهما يقولان : يا ربّ ، أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت ، وقد فعلْنا ما أمرتنا به ، وليس معنى ذلك أننا اكتفيْنا بتكليفك لنا ؛ لأننا نريد أن نذوقَ حلاوة التكليف منك مرات ومرات ، فاجعلنا نُسلِّم كل أمورنا إليك.

إن الإنسان لا يمكن أنْ ينتهي من تكليف ليطلب تكليفاً غيره ، إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ، ووجد فيه استمتاعاً ، ولا يجد الإنسان استمتاعاً في التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه ، كلما عمل شيئاً استحضر النعيم الذي ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد.

ولم يكتفياَ بذلك ، بل أراد امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما ، فيقولان :﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة] ليتصل أمدُ منهج الله في الأرض ، ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة.

ثم يقولان :﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة] أي : بيِّن لنا يا رب ما تريده منّا ، بيِّن كيف نعبدك ؟ وكيف نتقرَّب إليك ؟ والمناسك هي الأمور التى يريد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنّ نعبده بها.

وقوله ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا (١٢٨) ﴾ [البقرة] يُرينا أن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكليف على نفسه ؛ لأنه لا يرى فى كل تكليف إلا تطهيراً للنفس ، وخَيْراً للذرية ، ونعيماً في الآخرة .

﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾ [البقرة]

لقد طلبَا من الله ـ تبارك وتعالى ـ التوبة والرحمة لذريتهما ، والله يحب التوبة من عباده ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضلَّه في فلاة[1] ، ومن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة]

دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ اللهَ ـ سبحانه وتعالى ـ ليُتِمَّ نعمته على ذريته ، ويزيد رحمته على عباده ، بأنْ يرسلَ لهم رسولاً يُبلِّغهم مَنهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ، ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم.

والحق سبحانه يقول :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾

[البقرة]

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان علي راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتي شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح».

سُمِّيَتْ الكعبةُ بيتاً ؛ لأنها المكان الذي يستريح إليه كل خَلْق الله ، وهو مثابة للناس ؛ لأن العبد يذوق حلاوة وجوده في بيت ربه ، فلا يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته ، فلو نظرت إلى الكعبة سيذهب كل ما في صدرك من ضيق وهم وحزن ، ولا تتذكر أولادك ولاشئون دنياك ، ولو ظلَّتْ جاذبية بيت الله في قلوب الناس مستمرة لتركوا كُلَّ شئون دنياهم ليبقوا بجوار البيت.

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفي من عقل الحاجِّ وقلبه ؛ لأن الحجيج في بيت ربهم كلما كَرَبهم شيء ، أو هَمَّهُمْ أمر توجهوا إلى ربهم وهم في بيته ، فيذهب عنهم الهَمُّ والكرب .

وهذه دعوة إبراهيم عليه السلام حينما قال :

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]

فذكر الأفئدة ولم يذكر الأجسام ، وتهوي . أي : يُلقون أنفسهم إلى البيت ، ومن الخير أنْ تتركَ الناس يثُوبُون إلى بيت الله ؛ ليمحو الله سبحانه ما فى صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة.

فعلاقة الفؤاد والأفئدة بالحجيج علاقة قوية ؛ لأن الهُوىَّ في الحجيج هُويٌّ قلوب ، لا جيوب ، وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أنْ يحظى بأداء تلك الفريضة .

وكلمة «تهوي» بكسر الواو ، تدلُّ على السقوط من حالق ، أي : من مكان مرتفع شاهق ، وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها ؛ ولذلك نجد الكَلِف بالحج ـ المحب له والمتعلِّق به ـ تشتاق روحه إلى الحج.

وعلينا أنْ نُفَرِّق بين «يَهْوَى» أى : يحب الذهاب ، «ويهوى» بكسر

الواو ، أي : يذهب بالاندفاع ، فالإنسان إنْ سقط من مكان عَالٍ لا يستطيع أن يقول : سأتوقف عند نقطة ما في منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذي يقع من مكان لا يقدر على أنْ يُمسك نفسه.

وهذا دليل على أن الهُويَّ ليس من صَنْعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأفئدة ، والأفئدة بيد الله سبحانه ، هو الذي جعلها تهوي.

ومن هنا كان الأمر لإبراهيم ـ عليه السلام ـ برَفْع القواعد من البيت الحرام ، وتطهير البيت وإعداده للطائفين به والقائمين والركَّع والسُّجود ، قال تعالى :﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ {الحج}

والمراد : طَهِّر البيت من كل ما يُشعر بالشرك ، فهذه هى البداية الصحيحة لإقامة بيت الله ، فالتطهير يعنى الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وطهارة حِسِّية مما أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً.

ولذلك يقول تعالى :﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ {البقرة}

وقوله تعالى :﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ (١٢٥)﴾{البقرة} دليل على أن البيت زالتْ معالمه تماماً ، وأصبح مثل سائر الأرض فذُبحت فيه الذبائح وأُلقيتْ المخلَّفات ، فأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُطهر إبراهيم وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ، ويجعله مكاناً لثلاث طوائف :

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ والطائف هو الذي يطوف ، وهي مأخوذة من الطواف ، وهو الدوران حول الشيء.

﴿ وَالْعَاكِفِينَ﴾ هم : المقيمون .

﴿ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ هم : المصلُّون.

فتطهير البيت للطواف به ، والإقامة ، والصلاة فيه ، وهو مُطهَّر أيضاً لأنه سيكون قِبْلة للمسلمين ، لكل راكع أو ساجد في الأرض حتى قيام الساعة.

من هنا جاء الأمر لإبراهيم ـ عليه السلام ـ بالتأذين في الناس بالحج ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧)﴾ {الحج}

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أن رفع القواعد من البيت وطهَّره للطائفين والقائمين والركَّع السُّجود أنْ يُؤذِّن فى الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمر به ، أو يعيش إلى جواره ؟

أراد الحق سبحانه أنْ يشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإن كانت المساجد كلها بيوتاً لله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ، لذلك جعله قِبْلة لبيوته التي اختارها الخلق.

ومعنى ﴿وَأَذِّن (٢٧)﴾ {الحج} الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأُذن ، ومن الأذن أُخِذ الأذان ، أى : الإعلام .

وحينما أمر الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالأذان لم يكن حول البيت غير إبراهيم وولده إسماعيل وزوجته هاجر ، فلمن يُؤذِّن ؟ ومَنْ سيستمع في صحراء واسعة شاسعة ووادٍ غير مسكون ؟

فناداه ربه : يا إبراهيم ، عليك الأذان وعلينا البلاغ ، فمهمتك أن ترفع

صوتك بالأذان ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس في كل الزمان وفي كل المكان ، وسيسمعه البشر جميعاً وهم في عالم الذرِّ ، وفي أصلاب آبائهم بقدرة الله تعالى .

يعني :أَدِّ ما عليك ، واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك. فأذَّن إبراهيم في الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أنْ تقوم الساعة.

والحق سبحانه يعطي لنا مثال هذا في قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ :

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾﴾ {الأنفال}

وكان ذلك في غزوة بدر ، حيث استنجد رسول الله ﷺ بربه واستغاث ودعا الله ورفع يديه ، فقال : «يا ربِّ ، إنْ تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً ، فقال له جبريل : خُذْ قبضة من التراب فارْمِ بها في وجوههم ، فأخذ ﷺ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم ، فَما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومَنْخريْه وفمه تراب من تلك القبضة فولّوا من مدبرين»(١).

ومعلوم أنه ساعة تأتي ذرة تراب في عيني الإنسان يشتغل بعينيه عن كل شيء . فقولُ الحق تبارك وتعالى :﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾﴾ {الأنفال}

أي : أنك يا رسول الله ، ما أرسلت بالرَّمْية الواحدة ـ حفنة التراب ـ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) كتاب الجهاد ، من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ».

ولم يذكر رمى التراب فى وجوه المشركين ، ولكن قد أورد ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٥) هذا الأثر عن ابن عباس. باللفظ الذى ذكره الشيخ الشعراوى رحمه الله هنا.

إلى عيون كل الأعداء ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد ، ولكنك «إذ رميت» أي : أدَّيْتَ نصيحة جبريل لك ، أما الإيصال إلى عيون العدو ، فهذا من فِعْل الله القوي القادر .

فما عليك يا إبراهيم إلا أن تؤدِّى ما عليك ، فتؤذِّن في الناس بالحج، وعلينا نحن إيصال هذا النداء إلى كل نَسْمة خلقها الله.

ثم يقول تعالى :﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧)﴾ {الحج}

ورجالاً هنا ليست جمعاً لرجل كما يظنُّ البعض ـ إنما جَمْعاً لراجل ، وهو الذي يسير على رِجْلَيْه ، والأرجل مخلوقة لتحمل بنى الإنسان : الواقف منهم ، وتقوم بتحريك المتحرِّك منهم . فإنْ كان الإنسان واقفاً حملته رِجْلاه ، وإنْ كان ماشياً فإن رِجْلَيْه تتحركان .

والضامر : الفرَس أو البعير المهزول من طول السفر.

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهي ﴿ يَأْتُوكَ(٢٧) ﴾{الحج} فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً ، يأتون جميعاً رجالاً أو ركباناً من كل طريق بعيد.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ {آل عمران}

علينا أن ننتبه إلى أن الله قال في كل تكليف : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ... (١٧٨) ﴾ {البقرة} ولكنه سبحانه جاء في فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله «على الناس» ، وليس لمن أسلموا فقط.

ورسول الله ﷺ قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمحكون في إبراهيم عليه السلام أنْ يحجُّوا البيت الحرام ، فامتنعوا عن الحج ، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد ﷺ لما عرض رسول الله ﷺ على اليهود والنصارى أنْ يحجُّوا ليكون ذلك جَمْعاً لهم على أنْ يتجه الخَلْق جميعاً إلي بيت الله ، ويعبدوا إلهاً واحداً ، هو ربُّ هذا البيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج.

لذلك يقول رسول الله ﷺ فيمن لم يحجّ بدون مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فقر وعَوز [1] : «مَنْ ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أنْ يموت ، إنْ شاء يهودياً ، وإنْ شاء نصرانياً ، وذلك أن الله تعالي يقول :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴿٩٧﴾ ﴾ {آل عمران}

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقوْل الحق :﴿وَمَن كَفَرَ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ {آل عمران} ، فهل يقع مَنْ لا يحج بدون مانع قاهر في الكفر ؟

هنا يقف العلماء وقفةً . العلماء يقولون : نعم ، إنه يدخل في الكفر ، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان : كفر بالله ، أو كفر بنعمة الله.

ومثال ذلك قوله جلَّ شأنه : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ {النحل}

أو : هو الكفر ، كأنْ يموت الإنسانُ يهودياً أو نصرانياً.

---

(١) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/ ١٣٤) من حديث على ـ رضى الله عنه ـ وقال: « رواه الترمذى والبيهقى من رواية الحارث عن على ، وقال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» .

وهنا نقول : انتبه ، لا تأخذ الحكم من زاوية ، وتترك الزاوية الأخرى . إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله :﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴿٩٧﴾﴾ {آل عمران} ، فهل تعارضون فى هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ، ولكن لا تُنفِّذونه؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴿٩٧﴾﴾ {آل عمران} فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ «نعم» ، ولكن الموقف يختلف من مؤمن إلى آخر ، فنحن نجد مؤمناً يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ونجد مؤمناً آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصياً.

ونجد فى هذا الموقف أن الكفر نوعان:

ـ هناك مَنْ يكفر بحكم الحج ، أى : مَنْ كفر في الاعتقاد بأن لله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقاً.

ـ وهناك نوع آخر ، وهو الذي يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أمْن طريق ، ومن قدرة علي زاد يكفي مَنْ يعولهم إلى أنْ يعود.

وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أنْ يسعى إلى الحج ، لذلك قال بعض العارفين : لو أن أحدهم أخْبِر بأن له ميراثاً بمكة لَذهبَ إليه حَبْواً.

ولننظر إلى دقَّة الأداء القرآني حين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ {آل عمران}

إن الله غنى عن كل مخلوقاته ، وإياك أن تفهم أن الذي لم يكفر وآمن ، وأدَّى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ، إن الله غنى عن الذى أدَّى ، وعن الذى لم يُؤدِّ ، إياك أنْ تظنَّ أن مَنْ أدَّى قد صنع لله معروفاً ، أو قدَّم لله يداً.

والحج هو رحلة فرضها الله مرة واحدة فى العمر ، يخرج إليها المسلم الذى يحيا فى كل مكان مع نعمة المنعم ، وعندما يخرج المسلم إلى الحج فهو يتحلل من كُلِّ النعم التى تصنع له التمييز ليستوى مع كل خَلْق الله .

وأوَّل سِمَة مُميزة للإنسان هى الملابس ؛ لذلك يخلع المسلمون ملابسهم ، ويرتدون لباساً مُوحّداً يتساوون فيه ، وحين يترك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى المُنعِم.

فالكل سواء فى ملابس تكاد تكون واحدة ، وكلهم شُعْث[1] غُبْر ، وكلهم يقولون «لبيك اللهم لبيك» هكذا تتم تصفية التفاوت فى الإنسان بالإحرام ، وتصبح العبودية مستطرقة فى الجميع .

وتزول فى الحج كل الألقاب والمقادير المتباينة من فور اتجاههم إلى الحج ، وحول الكعبة يرى الخفير الوزير وهو يبكى ، ويشعر الجميع أن الكل سواء.

والحق سبحانه يقول :﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة]

والحج هو القصد إلى مُعظَّم ، وهو «حج البيت» . أما العمرة فهى الحج الكبير ، وزمانها شائع فى كل السنة ، والقاصدون للبيت يتوزعون على العالم كله.

والحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده ، وهو يعلم أن بعض الناس سيقبلون على العبادات إقبالاً شكلياً ، وقد يقبلون على العبادة لأغراض أخرى غير العبادة ، فكان لابد أن يبين القصد من الحج والعمرة ، وأن

(١) تشعث : تلبَّد شعره واغبرَّ. واغبرَّ الشيء: علاه الغبار . والغُبْرة : لون الغبار . (لسان العرب ـ مادتا : شعث ، غبر).

المطلوب هو إتمامهما ، ولا بد أن يكون القصد لله لا لشيء آخر ، لا ليقال «الحاج فلان» ، أو ليشترى سلعاً رخيصة ويبيعها بأغلى من ثمنها بعد عودته.

والحق سبحانه وتعالى يقول :﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ (١) أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم (٢) مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ (٣) الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ..(١٩٨)﴾ {البقرة}

فلا إثم عليكم ولا حرج أن تتكسبوا فى الحج ، وهو نسك عبادى ، فلا مانع أن تذهب لتحج وتتاجر ؛ لأنك ستُيسِّر أمراً ، لأننا إن منعناه ، فمن الذى يقوم بأمر الحجيج ؟

وكل ابتغاء الرزق وابتغاء الفضل لا يصح أن يغيب عن ذهن مبتغى الرزق والفضل ، فكله من عند الله ، إياك أن تقول : قوة أسباب . وإياك أن تقول : ذكاء أو احتياط ، فلا شيء من ذلك كله ، لأن الرزق كله من الله ، هو فضل من الله .

ولا ضرر عليك أن تبتغى الفضل من الرب سبحانه ؛ لأنه هو الخالق وهو المربِّى ونحن مربوبون له ، فلا غضاضة أن تطلب الفضل من الله .

وقد وصف رب العزة سبحانه بيته بأنه البيت العتيق ، فقال تعالى : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ {الحج}

---

(١) الجناح : الإثم والذنب . أى : ليس عليكم إثم فى أن تتكسبوا فى الحج.

(٢) أفاض الحجاج من عرفات : انصرفوا إلى منىً بعد انقضاء الموقف كأنهم سيْل ينحدر ويسيل فى سهولة ويُسر . (القاموس القويم ٢/ ٩٣).

(٣) المشعر : المعلَم الظاهر من أماكن الحج . (القاموس القويم ١/ ٣٥٠) .
قال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها . وفى رواية : هذا الجبل وما حوله .[ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/ ٢٤٢].

وكلمة عتيق استعملت في اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وضِع للناس فهو إذن قديم ، والقِدَم هنا صفة مدح ؛ لأنها تعنى الشيء الثمين الذى يُحافظ عليه ، ويُهتم به.

كما نرى عند بعض أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها ويتوارثونها يسمونها «العاديات» مثل : التحف وغيرها ، وكلما مر عليها الزمن زادت قيمتها وغلا ثمنها.

والعتيق : الشيء الجميل الحسن . والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق؟

وَصْف البيت بالقِدَم يشمل كل هذه المعانى ، فهو قديم لأنه أول بيت وُضِع للناس ، وهو غالٍ ونفيس ونادر ، حيث نرى فيه ما لا نراه فى غيره من آيات ، ويكفى أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذى لا مثيل له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألا ترى قصة الفيل وما فعله الله بأبرهة حين أراد هدمه ؟ حتى الفيل الذى كان يتقدم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداء على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجه أيَّ وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة.

ويُقال : إن رجلاً [1] تقدم إلى الفيل وقال فى أذنه : ابْرُك محمود ـ اسم الفيل ـ وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام.

وقد عبّر الشاعر [2] عن هذا الموقف ، فقال :

---

(١) هو : نفيل بن حبيب الخثعمى ، فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٥٢) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى .

حُبِسَ الفيلُ بالمغمَّس [1] حتى ظَلَّ يَعْوى كأنه مَعْقُورُ [2]

ثم أنزل الله عليهم الطير الأبابيل التى ترميهم بالحجارة حتى الموت.

والحق سبحانه يحدثنا عن هذا البيت ، فيقول :

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة]

فالله جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كَدْحهم ، لأنه بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت لله ، ولكن باختيار خلق الله ، أما الكعبة فهى بيت الله باختيار الله ، وهى قبلة لبيوت الله التى قامت باختيار خلق الله.

وقد أراد سبحانه أن تكون الكعبة هى البيت الحرام ليحفظ على الناس قِوَام حياتهم بالطعام والشراب واستيفاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين ؛ ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية . فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر.

وتبدأ الحياة بوجود الروح فى المادة ، فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المصادر ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته فى الآخرة ، فلا تنتهى منه الحياة أبداً.

لقد جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ، أى : قواماً لحياتهم ، سواء الحياة الدنيا أو حياة الآخرة.

---

(١) المغمَّس : موضع قريب من مكة.

(٢) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبى الصلت.

والحق سبحانه يقول :

﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ① إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④﴾ [قريش]

فقد كانت قريش تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذى يحج إليه كل عربى ، يوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو لقبيلته .

إذن : فالبيت الحرام هو الذى أوجد لهم تلك المهابة ، وإبراهيم عليه السلام كان يعيش فى عقائد هؤلاء القوم ؛ لأن كل أمور إبراهيم النُّسكية كانت فى هذا المكان ، فمثلاً همّه بذبح ابنه وفداء السماء لابنه كانا فى هذا المكان ، ورفعه الكعبة كان فى هذا المكان ، والكعبة هى مركز السيادة لقريش، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل.

لقد أراد الحق سبحانه أن يوضح لقريش أن السيادة التى أخذتموها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت ، فلو لم يوجد هذا البيت وهذه الكعبة لكنتم قبيلة من القبائل . لا مهابة لكم ولا سلطان ولا جاه.